تاريخ الغناء العربي

(١) في العهد الجاهلي

الغناء فن جميل يقصد به تحريك النفوس بتنسيق الأصوات وتأليفها على طريقة ترتاح لها الآذان فتهتز لها القلوب وتنشرح بها الصدور

وخير الغناء ما تضمّن أغراضاً شريفة وصادف أفئدة حصيفة وصدر عن ألسنة فصيحة

والغناء العربي مظهر من مظاهر الحضارة العربية ومعرض حسن لآدابها وصورة ناطقة بمشاعرها وميولها وشرعة حام على ورودها العرب والعجم إلا أن الآخرين أعجموا . والأولين أعربوا كما أطربوا . فأنهلونا من سلسالها حتى تحبّبنا ريّا . وتزوّدنا رويّا . وخيلة غنّى على أيكاتها المغنون في أحضان نجد وثرى تهامة . ومشارف الشام وربا اليمامة . وغياض اليمن وعمان . وقصور الخلفاء في بغداد . ومروج الأندلس الخضراء في أيامها البيضاء . كما صدحت على أغصانها البلابل وشدت على آجامها كل قُمرية ولحّنت على أعوادها بنات الهديل بلحنها الجميل فأطربت وإن أعجمت . غير أن العرب حاكت سجعها وإيقاعها فاخترعت العود والمزهر الحنون إلى غيرها من آلات الطرب وسكبت نغماتها في قوالب من الشعر الرقيق في كل معنى أنيق يدخل إلى الآذان بلا استئذان وافتنت في الإيقاع وأتت بطرائف من الابتداع . وقد دفعتها الحاجة إلى الغناء للتغنّي بفضائلها وشرف محتدها وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النازحة وفرسانها الأبطال وأجوادها من جميع الأجيال وتستهض العزائم وقت النزال وتميد إلى الحزين سروره وتسهّل لذي الحاجة أموره وتحرّك القلوب بالغزل والنسيب . والتشبيب بالحبيب . فيصبو الراهب في صومعته فيدع صلاته وصيامه . وينسى تبتّله وقيامه . إلى غير ذلك من ضروب الأدب المدوّنة في كتب العرب ولذلك توهموا أعاريض فجعلوها موازين للكلام في بداوتهم ودوّنوا بها طرائق لحنها في حضارتهم وجعلوا لكل غناء أو لحن وزناً كما يأتي

(١) النصب وهو غناء الركبان

(٢) الهزج وهو الغناء الخفيف الخصيص برقص العرب فإذا ما سمعه الحاج منهم

انبعثت جوارحه واهتزت أعصابه فقام يرقص طرباً كالفتى لعبت به الصبابة لعب الريح بالعلم

(٣) السناد وهو الغناء الثقيل ذو الترجيع الكثير النغم — وكل ذلك كان فى الجاهلية قبل أن يلبس العرب ثياب الحضارة وينبذوا أرائك الإمارة — قال لبيد العامرى فى معلقته :

بصبوح[١] صافية وجذب كريمة ومؤثر[٢] تأتاله[٣] إبهامها

ولقد أغرقوا فى الشغف بالغناء حتى كان الشاعر المتهام يشبه هوى حبيبه بالغناء كما قال :

وهواك عندى كالغناء لأنه حسن لدىّ ثقيله وخفيفه

وظلوا بعد الإسلام يخصون كل لحن بوزن كما سنبين ذلك إن شاء الله تعالى فى مقالاتنا الآتية فى الأغانى الأموية والبابية والأندلسية

ولا نحال الوزن الا مأخوذاً فى الأصل من توقيع سير الإبل فى التائف[٤] والقلوات فى الندوات والروحات ولا ريب فى ذلك فتوقيعه يوافق خطاها يعزز ذلك أن الرجز أول ما استعمله العرب لسوق الإبل المعروف عندهم بالحُداء (والنصب المتقدم ضرب منه) لأن العربى يقضى جل حياته فى مباشرة جمله أو ناقته وأكثر الرجز ما كان مشطوراً كقول الشاعر :

يشكو إلىّ جملى طول السرى[٥] يا جملى ليس إلىّ المشتكى
قد ذرعان كلفانى ما ترى شدّ الجواليق[٦] وجذبا بالبرى[٧]
صبراً جميلاً فكلانا مبتلى

ولو ركبت أيها القارئ ناقة وسارت بك على مهل لرأيت سيرها أشبه بهذا الوزن تماماً ويتجلى للنظارة من حركات اهتزازك عليها توافق تلك الحركات لتوقيع ذلك الرجز مقطعاً — وبهذا الضرب كانت العرب تحدو إبلها إذا أرادت مشيها وئيداً أما إذا أراد الحادى أن تسرع الجمال فى مشيتها فإنه يحدوها بالرجز المنهوك مثل

(١) الصبوح بفتح الصاد المشددة شرب الخمر فى الصباح (٢) موتر مضرب ذو وتر أو أوتار
(٣) تأتاله تحركه تأتاً بتنسيق (٤) التائف جمع تنوفة وهى البرية لا ماء فيها ولا أنيس
(٥) السرى — السير بالليل (٦) الجواليق جمع جوالق وهو الشوال باللغة العامية المصرية
(٧) البرة حلقة فى أنف البعير أو فى لحمة أنفه

يا ليتني فيها [٨] جذع أخب [٩] فيها وأضع [١٠]

واعتبر ذلك في بحر الخبب من الشعر فإنه يوافق في توقيعه خبب الفرس إذا ما ركض مثل

أبكيت على طلل [١١] طربا [١٢] ؟! نشجاك وأحزنك الطلل

(وخبب الفرس يسميه بدو مصر الآن بالحجج)

ثم وضع العرب بعد الرجز سائر الاوزان التي سماها الخليل بن احمد الفراهيدي فيما بعد بحوراً حسب مقتضيات الاحوال

والشعر والغناء من أصل واحد عند جميع الامم والشعر وضع أولاً للتغني به وإنشاده للآلهة ! ! ! أو الملوك أو الامراء ولذلك كان اليونان والرومان والفرس يقولون حتى الآن غنّى فلان شعراً وعليه جاء قول ابرهيم بن سهل

بكيتُ فقال الحسن هزءاً أتشترى ؟ بماء جفون ما تقر منصّد

وغنّيته شعري به أستميلهُ فأبدى ازدراء بابن [١٣] حجر ومعبد [١٤]

ولقد لبث اليونان أحقاباً لا يقولون الشعر إلا إنشاداً ولعلّ العرب كانوا كذلك قبل عصر أصحاب المعلقات (١٦٣ ق هـ) فنبغت منهم طائفة تغنى شعرها كما صنع الاعشى قبل الإسلام فقد كان ينظم الشعر ويغنيه ولذلك لقبوهُ صناجة العرب — وما فتئوا كذلك بعد الإسلام فإن الشاعر كان اذا قال قصيدة وقصد بها خليفة أو أميراً أنشدها في حضرته وهو قائم فإذا لم يكن رخيم الصوت اقتنى له غلاماً حسن الصوت جيّد اللحن ثم يدفع له القصيدة لينشدها أمام الممدوح — ولا يخفى ان للإنشاد لحناً مطرباً — وكان القدماء يعدّون الغناء لغة عامة لجميع الناس يفهمونها على تباين ألسنتهم واختلاف أمزجتهم وكان لا بد لطالب الفلسفة من الإحاطة بفن الموسيقى مع الرياضيات — وقد اتفقوا على أن لا شيء يعدل تأثير الغناء في إعداد النفوس الى الفضائل ما؟

عبد الرحيم محمود

المدرس بالسعيدية الثانوية بالجيزة

---

(٨) الجذع من ابهائم صغيرها (٩) أخب فيها أسير خبباً وهو نوع من سير الخيل المتوسط في السرعة (١٠) أضع أتوقف عن السير وأقيم في ميدانها ومعنى البيت يا ليتني في الحرب كالجذع أسير فيها كما يسير المهر خبباً وأتوقف عن السير وأقيم في ساحتها مقاتلا في كتلة الحاملين

(١١) الطلل ما بقي من الديار الدارسة (١٢) طربا حزنا والطرب يكون من فرح أو ترح فهو من الأضداد (١٣) ابن حجر هو امرؤ القيس رأس شعراء العرب في العهد الجاهلي

(١٤) معبد من أشهر المغنين المجيدين في العصور الاسلامية وسيأتي المقال فيه بالشهاب ان شاء الله تعالى